حوار حضارات أم صراع؟
نحو رؤيـــة متوازنـــة للتعـــايـــش

عيسى برهومة*

مقدمة

شاعت في العِقد الأخير من القرن العشرين أربعُ مقولات أو أربعة مفاهيم كانت العناوينَ العريضة لمرحلة ما بعد سقوط الاتحاد السوفيتي وأنظمة الاشتراكية في شرقي أوروبا. وهذه المقولات هي: "النظام العالمي الجديد" و"نهاية التاريخ" و"صراع الحضارات" و"العولمة الاقتصادية الجديدة" حيث غدا كل منها عَلَماً مع بداية القرن الحادي والعشرين، غير أنّ الحديثَ عن صدام الحضارات أو الصراع بينها تحديداً فقد شغل الكثيرين من الاستراتيجيين والمهتمين بالشأن الدولي وبمسألة العلاقاتِ الدوليّة.

تبدأ هذه القضية التي نحن بصددها من حقيقة لا مهرب منها وهي أن الحضارة الغربية هي الحضارة الأقوى والمسيطرة بكل المقاييس على العالم؛ إذ إن مسار التفاعل الحضاري يتم من خلال المرسوم الذي تصدره الحضارة الغربية، فلغة الحوار بين الحضارات هي الإحاطة والحصار أو الاستيعاب والهضم أو التبديد والفناء.

تناقش هذه الدراسة أطروحتي فوكوياما وهنتجتون، وتحاول عقد مقاربة بين تيْنك الأطروحتين وما قدمه مالك بن نبي في المشكل الحضاري. وارتأت الدراسة أن توظف منهج التحليل المقارن؛ لأهمية هذا المنهج وأنه يساعد على كشف النقاب عن الكثير من الموضوعات.

* أستاذ مساعد في اللسانيات، الجامعة الهاشمية، الأردن. ebarhouma@hotmail.com

ولعل أظهر الإشكاليات التي دفعت الباحثين ليتنادوا مناقشين ومحللين وناقدين الأطاريح الغربية في نهاية التاريخ وصراع الحضارات، هو أن هذه المقولات انطلقت من رؤية استعلائية لا تقيم للآخر أيّ اعتبار، ثم إن هذه المقولات عدَّت أساس الصراع حضارياً، ومن ثم رأت أن الحضارة الغربية هي قمة المنجز الإنساني، وأن الليبرالية الغربية هي غاية الطموح التي تتطلع إليه الأجيال، وبذلك تكون هذه الرؤى أقصت التعدد الثقافي والحضاري، وأججت الصراع بين الحضارات بدلا من إقامة جسور التواصل بين الجيران في الإنسانية، وكأن البشرية لا مندوحة لها عن الاقتتال والصدام وعن وجود عدو حقيقي أو مفترض، فبعد سقوط الاتحاد السوفياتي نجم فراغ لعدو آخر، فكان أن زُجَّ الإسلام في صراع ليس له طرف فيه، وتعززت حمى العداء بعد أحداث الحادي عشر من أيلول 2001، وبذلك غدا الإسلام معادلاً موضوعياً للإرهاب ليس في أمريكا فحسب، بل في أنحاء المعمورة.

إن العالم يتجه في ظل هذه المركزية الأمريكية نحو منعطف خطير يحتم على العقلاء إيجاد لغة مشتركة وأرضية صالحة للتعايش وتؤمن بالتنوع، والتعدد، والخصوصيات الثقافية والحضارية وتنأى عن القسر في ترويج الأفكار ونشر رؤية أحادية الجانب.

وما يقوِّي الرغبة في خوض الجدل الحضاري في هذا العصر أنه موضوع بات يَشْغَل جزءاً كبيراً من المساحات الإعلاميّة – المقروءةِ والمكتوبةِ والمسموعةِ الذي يعكس حالة الشرخ القائم بين الغرب والإسلام، وهو الشرخ المتجسد، تارةً عبر نقاط ساخنة؛ كالصدام العسكري، وتارةً أخرى عبر قوانين الأمن المدني، سواء كان ذلك مطروحاً في أجندة الهجرة أو ذوبان الأقليات في المجتمع للحفاظ على الهوية القومية، أو قوانين مكافحة الإرهاب ولاسيما بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر في نيويورك وواشنطن والتداعيات المرافقة لها، فأصبح خوض الحرب بلا حدود ضد عدو غير محدود وذي قيادة منفلتة هلامية تسمى (الإرهاب)، وعلى هذه الموجة العاصفة قامت الندوات والمؤتمرات والبحوث والدراسات رافضة بشدة هذه الأفكار، فما هي حقيقةُ هذا الصراع، وما هي منطلقاتُه وتداعياتُه ؟

أولاً– الحضارة بين اللغة والاصطلاح

إنَّ المصطلحاتِ الرائجةَ في هذا الحقل مثل المدنية والثقافة والحضارة غيرُ محددة، فالحضارة وحدَها لها تعريفات كثيرة، فهي تتعدد في تعريفاتها بتعدد زوايا النظر إليها، وتنوع الفِكْر الذي يصدر عنه أصحاب هذه التعريفات.

وإذا استنطقنا اللغة وجدنا أن الحضارة (بفتح الحاء أو كسرها) تعني الإقامةَ في الحضر أي في المدن والقرى، والحاضرةُ ضد البادية وهي المدن والقرى ونقول فلان (حضري) أي يقيم في الحاضرة[1] فأصل المعنى إذن هو الاستقرار الذي ينشأ عن زراعة الأرض وما يرافقها من العُمران والبناء والارتقاء في أسباب التطور والنماء.

والحضارة عند ابنِ خلدون: هي طور طبيعي أو جيل من أجيال طبيعية في حياة المجتمعات المختلفة. وهو يرى أن الحضارة غاية للبداوة، فالبدو يقتصرون على الضروري في معاشهم، حتى إذا ما أتيح لهم أن يتطوّروا انتقلوا إلى أحوال جديدة.[2] ويركز على الحضارة بوصفها أسباباً للرفاه والدعة والعمران.

أمّا المفهوم الذي يتبناه قسطنطين زريق، فهو: "أن حضارة أي مجتمع هي حياة هذا المجتمع المتمثلة في نظمه ومؤسساته وفي مكاسبه وإنجازاته، وفي القيم والمعاني التي تنطوي هذه الحياة عليها."[3]

وفي المنظور الغربي يرى ليفي شتراوس :"أن الكلمات بالنسبة لكُلّ منَّا أدوات نطبقها ونفسرها على ما نهوى وندرك، طالما كانت في خدمة مراميا ونيَّاتنا"[4]

وإذا اكتفينا بما تلقيه كلمة الحضارة في الأذهان وهو"تقدم المجتمع البشري" فهل

---

[1] الجوهـــري، أبو نصر إسماعيل بن حماد. **الصحاح: تاج اللغة وصحاح العربية**، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، القاهرة: دار الكتاب العربي، 1956، مادة "حضر".

[2] زريق، قسطنطين. **في معركة الحضارة**، ط3، بيروت: دار العلم للملايين، 1977، ص28.

[3] المصدر السابق، ص40.

[4] بروديل، فرناند. **تاريخ وقواعد الحضارات**، ترجمة حسن شريف، القاهرة: الهيئة المصرية العامة، 1999، ص4.

تقدم المجتمعات البشرية في الحقول المادية أو التقنية هو الحضارة؟ أم أن التقدم المادي هو أداة يتعامل معها الإنسان وفق القيم المتحصلة لديه لتتضح معها قيمه ورؤيته وفلسفته؟

وهناك من يرفض ذلك، والمنطق القرآني له رؤيته أيضاً، فالبناء المادي مرفوض إذا لم يكن قائماً على أساس معايير إنسانية أو على معايير التقوى بالتعبير القرآني. يقول تعالى: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ * وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ * وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ (الشعراء:128-131) فالقوة الماديّة تكون سبب البطش والتجبُّر إذا لم تكن مقرونة بقيم ذات بُعد ديني، الأمر الذي يدعونا لمتابعة الجهد في توضيح هذه الرؤية من منظور الوحي في التعايش والتوازن الذي يرسمه للبشرية.

والحضارة عند هنتنجتون هي كيان ثقافي يتحدد بعناصر موضوعية مثل اللغة والتاريخ والدين والعادات، وبعناصر ذاتية تتركز على التماهي الذاتي للناس، ويمكن لحضارة ما أن تشمل عددا من الدول القومية أو دولة قومية واحدة،كما قد تحتوي بعض الحضارات الكبرى على الحضارات الفرعية (الأقليات)، فيبدو أن هنتنجتون يستخدم تعبير الثقافة والحضارة بمعنى واحد، بل إنّ تعبير الحضارة عنده يشمل الثقافة بمعناها الإنثولوجي، أي بما تحمله من معان ترتبط بالدين وأنماط الحياة والعلاقات والطقوس والعبادات، فهي بهذا المعنى تشمل سمات الأقوام والشعوب والجماعات الدينيّة والمذهبية والعرقيّة، فهذه كلها في استخدامه المعلن أو الضمني حضارات، والأمثلة التي استخدمها هنتنجتون للتدليل على صحة ما يذهب إليه بشأن صراع الحضارات تشي بهذا المعنى، فذكر مثلاً"مساندة تركيّا وإيران لأذربيجان وشعبها أشقائهما في الدين والعنصر واللغة."[5] كما ينظر إلى أن الأديان الأربعة: الإسلام،

[5] بـــراو، محمد. "الإسلام والغرب: صدام أم حوار؟"، متاح في islamonline.net ، وانظر هنتنجتون، صامويل. **صـــدام الحضارات وإعادة بناء النظام العالمي**، ترجمة: مالك أبو شهوة، ومحمود خلف، طرابلس [ليبيا]: الدار الجماهيرية، 1999.

المسيحية، الهندوسية، والبوذية من الناحية التاريخية هي ثمرة الصراع الذي دار بين الحضارة الرومانية–اليونانية ونظيراتها المعاصرة.

إذاً ينظر هنتنجتون إلى تاريخ الحضارات على أنّه صراع بين الحضارات، وأنَّ هذه الحضارات إنما تقوم على الدين كمعتقد رئيس ومرجع أساس في قيام الحضارة. فالحضارة في أنظار هؤلاء الثلاثة منظومة قيميّة لن يكتب لها البقاء إلا بقدر ما تحافظ على هذه المنظومة بغض النظر عن الحضارة التي يفترضها كلٌّ منهم لتكون في الصدارة والطليعة.

ثانياً: مالك بن نبي وأطروحته الحضاريّة

يُعدُّ مالك بن نبي ومدرسته من أكثر المدارس الفكريّة التي كان لها أثر واضح في تحديد مَلامح الفكر الإسلامي الحديث، ومع ذلك فقد درس المشكلات الحضاريّة عموماً دراسةً متميزةً في ضوء رؤية حضاريّة شاملة ومتكاملة.

ولا غرابة أن نجد من الدارسين من يعدُّ (مالك بن نبي) بمثابة ابن خلدون العصر الحديث، وأبرز مفكر عربي عُني بالفكر الحضاري منذ ابن خلدون، ومع أنّه تمثَّل فلسفات الحضارة الحديثة تمثلاً عميقاً واستلهم في أحايين كثيرة أعمال بعض الفلاسفة الغربيين، فإن ابن خلدون بالذات يظل أستاذه الأول وملهمه الأكبر، ومالك بن نبي نفسه لا يخفي تأثره بجملة من الباحثين والمفكرين الأوائل وعلى رأسهم ابن خلدون ونظرياته حول العمران البشري، بل أشار إلى ذلك في مواضع شتى من كتبه، كما ذكر ذلك في مذكرات حياته " شاهد القرن."[6] نناقش بعضها وفق الآتي:

1. مفهوم الحضارة عند مالك بن نبي

ينبني مفهوم الحضارة عند ابن نبي على اعتقاده الرَّاسخ بأنّ مشكلة كل شعب هي في جوهرها مشكلة حضارية، ولا يمكن لشعب أن يفهم أو يحل مشكلتهُ ما لم يرتفع

[6] انظر، ابن نبي، مالك. **مذكرات شاهد القرن**، ترجمة مروان القنواتي، بيروت: دار الفكر، 1969.

بفكرته إلى الأحداث الإنسانية، وما لم يتعمَّق في فهم العوامل التي تبني الحضارات أو تقدمها.

وانطلاقاً من هذا الاعتقاد الراسخ بأهميّة الحضارة وضرورة فقه حركتها منذ انطلاقتها الأولى إلى أفولها – يحاول ابن نبي إعطاء تعريف واسع للحضارة يتحدد عنده بضرورة "توفر مجموع الشروط الأخلاقية والماديّة التي تتيح لمجتمع معين أن يقسم لكل فرد من أفراده في كل طور من أطوار وجوده منذ الطفولة إلى الشيخوخة المساعدة الضروريّة له في هذا الطور أو ذاك من أطوار نموه"[7] وتكمن علاقة الحضارة بالثقافة في مهمتين أساسيتين للثقافة تهتم الأولى بالجانب الحيوي، أما الثانية فتهتم بالجانب التربوي في عملية نمو المجتمع وتحضره، فالثقافة الإسلامية تسهم في تشييد الحضارة الإنسانية الشاملة، وتعتمد أساسا على التعايش الثقافي بين الشعوب.[8]

ويتبين من خلال هذا أن مفهوم الحضارة عند ابن نبي شديد الارتباط بحركة المجتمع وفاعلية أبنائه؛ سواء في صعوده في مدارج الرقي والبهاء أو في انحطاطه وتخلفه.

أما العناصر الضرورية التي تتشكل منها الحضارات عند مالك بن نبي فثلاثة: الأولى هي الإنسان، والثانية هي التراب، أما الثالثة فهي الوقت. فالإنسان هو العنصر الفاعل المنتج للحضارة منتفعاً بالعناصر الماديّة التي كان التراب رمزاً لها في مثلث ابن نبي، ويبقى العنصر الثالث وهو العنصر الزمن؛ فإنّ الغرس يحتاج إلى وقت حتى يؤتي أُكلَهُ "والحضارة مرتبطة بالتاريخ؛ لأن التاريخ هو الزمن الذي تحتاج إليه الثمرات الحضارية لتبرز إلى حيّز الوجود،"[9] وهذه المعادلة لا تكون صحيحة إلا بشروط بينها التاريخ؛ لأنه مختبر التجارب والعمليات الاجتماعية، فالحاجة الأولى كما يؤكد ابن نبي

---

[7] ابن نبي، مالك. **شروط النهضة**، ط2، القاهرة: مكتبة دار العروبة، 1961، ص19-20

[8] عكاشة، شايف. **الصراع الحضاري في العالم الإسلامي: مدخل تحليلي في فلسفة الحضارة عند مالك بن نبي**، ط2، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 1988، ص72-73.

[9] مـــؤنس، حسين. **الحضارة: دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها**، ط2، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1998، ص15.

هي الإنسان الجديد، الإنسان المتحضر الذي يعود إلى التاريخ الذي خرجت منه حضارتنا منذ عهد بعيد.[10] والإنسان هو العنصر المكون لأي حضارة.

كما أنه يؤمن بأن الإنسان لا يتغير بوصفه كائناً حياً في حدود التاريخ؛ وإنما يتغير بوصفه كائناً اجتماعياً تغيره الظروف، فإن التاريخ يعجز عن أن يغير شعرة واحدة في الإنسان ولكنه يستطيع أن يزيد أو ينقص من ميزاته الاجتماعية وفعاليته من المنطق العملي.

وأمر آخر تدور حوله أطروحة مالك بن نبي الحضاريّة وهو ضرورة إبداع بدائل فكريّة ومناهج علمية مستقلة تتناسب مع البيئة الإسلامية بدل استيرادها كما هي من الغرب، ويلح على ضرورة الاستقلال الفكري في دراسة مشكلاتنا الحضاريّة والاجتماعيّة؛ لأنه يعتقد –كغيره من الدارسين للحضارات الإنسانية– أن هناك خصوصيّات تتميز بها كل منتجاتها ومصنوعاتها؛ لأنّ الحضارة إبداعٌ وليست تقليداً أو تبعيّة "فبعض القيم لا تباع ولا تشترى، ولا تكون في حوزة من يتمتع بها كثمرة جهد متواصل، أو هبة تهبها السماء، كما يوهب الخلد للأرواح الطاهرة ويصنع الخير في قلوب الأبرار."[11]

2. الدورة الحضاريّة عند ابن نبي

استخلص ابن نبي من قراءاته المتعددة للتاريخ البشري وفلسفته، ولتاريخ الحضارة الإسلامية على وجه الخصوص أنّ مسيرة الأمم والجماعات تخضع لنظام دوري، قلما تنجو أي أمة من الأمم من جريانه؛ وهذا في نظرهِ هو الذي يجعل الأمة في فترة من الفترات التاريخية الحضارية تسجل مآثر عظيمة ومفاخر كريمة، تبقى خالدة في سجل تاريخها وتاريخ البشرية من حولها، كما تسجل عليها في

[10] ابن نبي، مالك. **تأملات: مشكلات الحضارة**، ط5، الجزائر: دار الفكر، 1991، ص193-199.

[11] ابن نبي، مالك. **شروط النهضة**، مصدر سابق، ص15.

فترات أخرى انتكاسات وهزائم حضارية وعمرانية وعسكرية، وغير ذلك من الحالات المرَضيّة التي تهوي بالأمة إلى مهاوي التخلف والانحطاط في آخر طور من أطوار دورتها الحضاريّة.

ويعقد ابن نبي مقارنة بين هذا القانون أو السُنَّة الحضارية ونواميسها التي تخضع لها باقي المخلوقات في الكون؛ فاليوم يبدأ بالشروق فالزوال ثم يتبعهما الغروب الذي يسدل الظلام على الكون، والشهر كذلك يبدأ ببزوغ الهلال ثم يستكمل تدريجيّاً دورته في إطار سلسلة دوريّة مستمرة.

وانطلاقاً من هذا يقول ابن نبي: "إذا نظرنا إلى الأشياء من الوجهة الكونية فإننا نرى الحضارة تسير كما تسير الشمس، فكأنها تدور حول الأرض مشرقة في أفق هذا الشعب، ثم متحولة إلى أفق شعب آخر".[12]

ولا يعني هذا أن التاريخ يفرق هداياه أو يوزع أمجاده لأي كان، كما تنشر الشمس أشعتها، لكن التاريخ كتلة من السنن والنواميس الإلهية التي تتحكم في توجيه الأفراد والمجتمعات على السواء، وهذه السنن لا بد من استيعابها والسير على هداها، "فمن عادة التاريخ ألا يلتفت للأمم التي تغط في نومها وإنما يتركها لأحلامها التي تطربها حيناً وتزعجها حيناً آخر؛ تطربها إذ ترى في نومها أبطالها الخالدين وقد أدّوا رسالتهم، وتزعجها حينما تدخل صاغرةً في سلطة جبار عنيد."[13] ويضرب مالك بن نبي اليابان نموذجاً في البناء الحضاري الذي يتم بالدوافع التي تحرك الموجودات وليس المادة فقط والفكرة التي تربطها في العملية الاجتماعية وعندما لا يكون في هذه العملية سوى الأشياء وحدها، فالنتيجة تصبح في حكم المصادفة لا في حكم التقدير، وهذا ما وقع في نهضتنا العربية خلال النصف الأول من هذا القرن فكنا كأننا نحاول بناء

[12] ابن نبي، مالك. **شروط النهضة**، مصدر سابق، ص19-20.

[13] المصدر السابق، ص49.

حضارة بمنتوجاتها، وفي هذا تناقض واضح[14] فلا بد من إنتاج حضارة بمنتجاتنا، ولا يعني هذا بالضرورة الانغلاق على حضارتنا ومنتجاتنا فحَسْب. وشواهد التاريخ الإسلامي بارزة في ذلك حيث ازدهرت العلوم الفلسفية والكلامية وجدلياتها مع الآخر من خلال الثقافات الوافدة، فضلاً عن الحفاظ على العادات والتقاليد لدى الشعوب، بخلاف شواهد التاريخ المسيحي الذي يبرز انغلاقه مع الفكر الآخر؛ ابتداءً من ظاهرة محاكم التفتيش، مروراً بجاليلو،[15] وانتهاءً بمفهوم الإرهاب وقوانينه وأدبياته.

ومن خلال أطروحة مالك بن نبي نخلص إلى ما يلي:

أولاً: على الرغم من اهتمام ابن نبي بقضايا الحضارة ومشكلاتها فإن ذلك لم يجعله ينحو بتحليلاته منحى التجريد والنظر البعيدين عن هموم الأمة الإسلامية وقضاياها الاجتماعيّة والاقتصادية والفكرية.

ثانياً: تتبع مالك بن نبي لواقع الأمة الإسلامية ورصده لمختلف الظواهر لم يجعل فكره يتيه في طلب حلول جزئية أو ترقيعيّة (إن صحّ التعبير) لمعالجة هذا الواقع، بل نفذ ببصيرته ليكشف الخيوط الرابطة لتلك الظواهر، وليضع الحلول المناسبة لمشكلات الأمة بصورة قوانين دقيقة.

"فكان بذلك أوّل باحث حاول أن يحدد أبعاد المُشْكِلة الحضارية،ويحدد العناصر الأساسية للإصلاح، ويبعد في البحث عن العوارض، وكان كذلك أوّل من أودع منهجاً محدداً في بحث مشكلة المسلمين على أساس من علم النفس والاجتماع وسنة التاريخ".[16]

---

[14] ابن نبي، مالك. **تأملات: مشكلات الحضارة**، ص196.

[15] عكاشة، شايف. **الصراع الحضاري في العالم الإسلامي**، مصد سابق، ص60.

[16] سعيد، جودت. **مذهب ابن آدم الأول**، بيروت: دار الفكر، 1995، ص14-5.

ثالثاً: فوكوياما ونهاية التاريخ[17]

1. التاريخ يصل إلى نهايته عِنْدَ تحقُّق غايتهِ

دارت حول مقالة فوكوياما ضجّة إعلاميّة وفكريّة كبيرة. والحق إن أطروحة فوكوياما وأطروحة هنتنجتون تندرجان في حقل الدراسات الإستراتيجية التي تحمل تصورات ورؤى مستقبلية من منظور غربي، وهو نوع من الدراسات صار يتركز في العقود الأخيرة في الولايات المتحدة الأمريكية، وليس فوكوياما وهنتنجتون أول من كتب في هذا المضمار أو نظّر له، فقبلهما كان توفلر في مطلع السبعينات قد تصدّى لدراسة تطور الحضارة الإنسانية "وأصدر مجموعة من الكتب حاول من خلالها أن يوجه العالم نحو إحداث ثورة في طريقة التفكير وفي التوجهات الاقتصادية والسياسيّة."[18] وفي عام 1988 كتب المؤرخ (بول كنيدي) كتاباً عن صعود القوى العظمى وسقوطهما، وبناءً على ذلك نستطيع القول أن قدم السبق ليست لهما غير أنّ ما قدماه شكّل انعطافة في مسار التفكير المستقبلي فيما يتعلق بمصائر الأمم والحضارات.

وبالعود إلى أطروحة فوكوياما نجده يفترض أن التغيرات التي طرأت على العالم مع انهيار الاتحاد السوفييتي مؤذنَةً بنهاية التاريخ بوصفه تاريخاً، فضلاً عن طرحهِ نهاية حتميّة -في ظنِّه- لخط التطور الأيديولوجي للبشريّة وتعميم الديمقراطية الليبراليّة الغربيّة بوصفها بديلاً عن كل الأيديولوجيات الأخرى والشكل النهائي للحكم الإنساني.

إن نهاية التاريخ مفهوم ماركسي، وكان يرى هيغل من قبل في التاريخ عملية ارتقاء وتقدم كافة المجتمعات الإنسانية لبلوغ هدف نهائي أخير، وهذه الرأسمالية تخلق

---

[17] فرانسيس فوكوياما، باحث أمريكي ذو أصل ياباني، كان خبيراً في مركز البحوث التابع لوزارة الخارجية في الولايات المتحدة الأمريكيّة، وفي عام 1989 نشر في مجلة (المصلحة القومية) مقالة بعنوان "نهاية التاريخ".

[18] شريف، ماهر. **صراع الحضارات أم حوار الثقافات؟** أوراق ومداخلات المؤتمر الدولي، القاهرة: 1997، ص148.

مجتمع الرخاء الاقتصادي الذي يتحول بدوره إلى حاضنة يترعرع في كنفها نظام ليبرالي تتساوى فيه حقوق كل البشر في العالم،فيحقق بذلك قمة النضال التاريخي للاعتراف بالكرامة الإنسانية،كما يفضي الإجماع العالمي في عصر نهاية التاريخ إلى الاعتقاد السائد حاليا بأن المجتمعات ما بعد الصناعية لا يمكنها إدخال تحسينات على النموذج الديمقراطي الرأسمالي من خلال مشاريع "الهندسة الاجتماعية"التي تتبناها الدولة.[19]

وينظر فوكوياما إلى أن التاريخ تجربة بشرية تتطور بشكل متصل ومتماسك، وهذا المفهوم يتطابق مع هيغل للتاريخ وماركس أيضا، ولم يقصد بنهاية التاريخ توقف الأحداث، فالحياة ستستمر من ميلاد إلى موت، وسيستمر تفجر الأحداث سواء أكانت هامة أم غير هامة، وستستمر الجرائد في الإطلال كل يوم لكن الاختلاف الوحيد هو أنه لن يكون هناك أي تقدم أو تطور بعد اليوم فيما يتعلق بالمبادئ والعقائد والمؤسسات[20]

وناقش فوكوياما في أطروحته التحديات التي تواجه الليبراليّة الغربيّة، وحاول أن يقوِّض أركان تلك التحديات مانحاً الوجود والحقيقة المطلقة لليبرالية الغربية، فهو يرى أن الصراع في القرن العشرين تمركز في ثلاثة أقطاب:-

1. الليبرالية الغربية التي يدعو لها وينافح عنها.
2. الأيديولوجية الفاشية التي يرى أنها دُمِّرت ماديّاً في أوروبا خلال الحرب العالمية الثانيّة.
3. القطب الشيوعي الذي ساد في الصين والاتحاد السوفييتي ردحاً من الزمان حتى قضي عليه بتوصل ميخائيل جورباتشوف إلى السلطة وانهيار الاتحاد السوفيتي.

ونلحظ كيف خَلَت ساحة الصراع العالمي من الأيديولوجيات التي مثلت تحدياً لليبرالية الغربية، ولكن هل يعني هذا أنّ الليبرالية الغربية لن تواجه تحديات أخرى تعرقل مسيرتها ؟

---

[19] انظر فوكوياما، فرانسيس. **نهاية التاريخ**، ترجمة حسين الشيخ، بيروت: دار العلوم العربية، 1993.

[20] المصدر السابق، ص16.

في طرح فوكوياما احتمال أن تبرز تحديات جديدة أمام الليبرالية، الأول هو: التحدي الديني الذي لا يتخوف منه فوكوياما بل يرى أن الليبرالية كانت محصِّلة ضعف المجتمعات ذات الأسس الدينيّة، وهو إذ لا يتخوف من الديانتين المسيحية واليهودية يرى أنّ الإسلام وحده هو الذي يتبنى هدف إقامة دولة دينية قائمة على شرائع إسلامية.

أما الثاني فهو التحدي القومي الذي لا يرى أنّه يشكل خطراً على الليبرالية في الغرب وإنما تسود القومية بأبعادها المختلفة -في رأيه- في العالم الثالث وحده.

ويوضح فوكوياما أن الأميركيين بدأوا يشيرون بشكل متزايد إلى جوانب التفوق في إرثهم الثقافي، مثل احترامهم المتوارث للسلطة، وتشديدهم على أهمية التربية والتعليم والقيم العائلية بوصفها مصادر أصيلة يستمد منها المجتمع الآسيوي حيويته وانضباطه، وأن استمرار هذه الاختلافات قد يعني أن الحياة الدولية ستتحول إلى سباق وصراع بين ثقافات مختلفة،لا بين أيديولوجيات متصارعة (طالما أغلب الدول الناجحة اقتصاديا ستنتظم في خطوط متشابهة.[21]

وبعد فإنّ طرح فوكوياما يخلص إلى أنّ العالم حين يصل إلى نقطة النهاية بانتصار الليبرالية الغربية (سيكون عالماً خالياً من الأيديولوجيا) وعليه سينقسم العالم إلى قطبين كبيرين:

1. قطب بلدان العالم الثالث التي ستظل غارقة في مستنقع التاريخ.
2. قطب البلدان الغربية التي ستنشغل بالاقتصاد والحاجات الاستهلاكية.

ومن خلال هذين القطبين يتبين أن عجلة التاريخ تسير في حلقة مفرغة نحو العدالة وتنمية المجتمعات من جهة، وظهور قيم الابتزاز من جهة أخرى في العلاقة بينهما؛ بحيث تبنى الحياة على الرغبات والمنافع وليس القيم، بل إن القيم تصبح أداة تحركها

[21] فوكوياما. **نهاية التاريخ**، مصدر سابق، ص263.

رغبات الإنسان، لتغوص البشرية من جديد في مستنقع التعصبات الداخلية، والتجاذبات الدولية، والأهواء والنـــزاعات الشخصية، الأمر الذي يحقق استمرار الصراعات والتصادمات المفتعلة لتعظيم المنفعة و الرغبة على حساب الشعوب.

ويبين فوكوياما أثر الولايات المتحدة على المجتمعات والحضارات الأخرى، وأنها تؤثر بطريقة فعالة وقوية ويتم تطبيق القواعد العلمية والتقنية، والمبادئ والعقائد الأميركية. وشبَّه إحياء الإسلام أو التشبث بالدين الإسلامي بالفاشية الأوروبية.[22] وهذا لأن فوكوياما استبعد كل الديانات السماوية لأنها –من منظوره– تعوق عمليات التحديث والنمو الاقتصادي.

ويقارن فوكوياما في أطروحته بين الدول الأسيوية وفشلها من الناحية الاقتصادية والسياسية والنجاح المبهر للدول الأميركية والأوروبية، فيرى أن من أكثر التهم شيوعا والتي تلصق بحياة الأميركي المعاصر هي احتياجه للمشاركة.

كما أنه يؤمن في آخر أطروحته بأن الجنس البشري كما لو كان قطاراً طويلاً من العربات الخشبية التي تجرها الجياد متجهاً إلى مدينة بعينها عبر طريق طويل في قلب الصحراء، بعض هذه العربات قد حددت وجهتها بدقة ووصلت إليها بأسرع وقت ممكن، والبعض الآخر تعرض لهجوم من الآباش"الهنود الحمر" فضلّ الطريق، والبعض الثالث أنهكته الرحلة الطويلة فقرر اختيار مكان وسط الصحراء للإقامة فيها وتنازل عن فكرة الوصول إلى المدينة، بينما من ضلوا الطريق راحوا يبحثون عن طرق بديلة للوصول إلى المدينة، وفي النهاية يجدون أنفسهم مجبرين على استعمال الطريق نفسها — ولو عبر طرق فرعية مختلفة– للوصول إلى غايتهم، وفعلاً تصل أغلب هذه العربات إلى المدينة في النهاية، وهذه العربات عندما تصل لا يختلف بعضها عن بعض إلا في شيء واحد وهو توقيت وصولها إلى المدينة، سرعة أو بطء وصولها بعضها عن بعض إلى

[22] المصدر نفسه، ص265.

الديمقراطية الليبرالية، ومن ثم نهاية رحلتها الطويلة...نهاية التاريخ.[23] وكأنه أراد أن يقول لكل بداية نهاية؛ لكنه يدعي نهاية تاريخ حافل لأميركا ترسمه كما تريد، وتضع الخطوط والطرق، والعربات تسير وفق هذه الخطوط وهذا الطريق هو طريق واحد، وخلاف هذه الطريق ينشأ الصراع، وكله يصب في إطار مصلحة أميركا أولاً وأخيراً.

2. نهاية التاريخ :بين الحقيقة والأيديولوجيا

وقع فوكوياما في محظور أراد اجتنابه وهذا ظاهرٌ في نقاط عدة في أطروحته:

- قال إن نهاية التاريخ نهاية للأيديولوجيات، وهوا المسمار الأخير في نعشها في الوقت الذي منح فيه إكسير الحياة والبقاء للأيديولوجيا التي يصدر عنها وهي الليبرالية الغربية. فضلاً عن عدم قدرتنا أن نتعامل مع الأيديولوجيا تعاملاً بيولوجيّاً فنقضي بموتها وحياتها؛ فالأيديولوجيات لا تختفي، وإنما تضمر وتضمحل لتحل مكانها أيديولوجيات أقوى، فالأيديولوجيا إن لم تنجح في فرض نفسها على الغالبية لسبب من الأسباب فإنها تبقى خاصة بالمؤمنين بها والداعين إليها.

- وإذا سلَّمنا بتقسيم فوكوياما دول العالم إلى فئتين (الدول الغربية، ودول العالم الثالث) فإن هذا التقسيم سيفضي على المدى البعيد إلى مشكلات في التوازن الحضاري بين هاتين الفئتين، ومؤشرات هذه الأزمة بادية في حاضرنا؛ إذ نرى واقع هجرة الأيدي العاملة والكفاءات العلمية إلى الغرب بحثاً عن الفرص المواتية التي لا يجدونها في دول العالم الثالث القابعة في مستنقع التاريخ -حسب ما يرى فوكوياما- مما سيزيد الأمر سوءاً في تلك الدول، وسيخلق مشكلات إداريّة وتنموية في الدول المتقدمة كذلك، وبذا فقد تغرق الدول الغربية أيضاً في مستنقع التاريخ جرّاء تفاقم هذه المشكلات فضلاً عن مشكلات البيئة وقلة الموارد الطبيعية وغيرها من المشكلات التي تهم الإنسانية كلَّها.

---

[23] فوكوياما. **نهاية التاريخ**، ص279-280.

• في التاريخ لا توجد حقائق مطلقة أو نظريات ثابتة، وإنما توجد سنن وقوانين عامة تسهم في صنع التاريخ وهذا ما تحدده مجريات الأحداث، فكيف لفوكوياما أن يقضي بعدم خطورة التوجهات الدينية؟ وكيف لنا أن نغض الطرف عن تلك التجمعات الدينية والالتفاف حول الرموز الدينية خاصة في دول العالم الثالث –حسب تقسيم فوكوياما– وهذا واضح أيضاً في الدول الغربية حيث أن حملة جورج دبليو بوش انطلقت من منظور ديني، بغض النظر عن كونه مؤمناً بقوة الدين كعنصر إقناع للناخبين، أم هي قناعة شخصية لديه.

وبعد، فثمة تعميمات كثيرة في أطروحة فوكوياما وأحكام جزافية تَصبُّ في الهدف الذي صدر عنه فوكوياما وهو تحقيق أسباب البقاء والديمومة لليبرالية الغربية، وينبغي أن يُرْجع البصر إلى هذه الأطروحة لسدِّ فطورها وتقويم اعوجاجها.[24]

رابعاً: صامويل هنتنجتون، وصدام الحضارات:[25]

في عام 1993طالعنا هنتنجتون بمقالة نشرت في مجلة (فورين أفيرز) وكانت هذه المقالة نتاج مشروع يحمل عنوان:"حول الإطار الأمني المتغير والمصالح القوميّة الأمريكية". ويركز هنتنجتون تركيزًا خاصاً على ما يسميه بالعقدة الكونفوشية – الإسلامية، فيرى أن البلدان غير الراغبة في الانتساب إلى الغرب وقيمه صارت تسعى إلى بناء وتطوير قدراتها الاقتصادية والعسكرية، وإلى إيجاد أشكال من التعاون فيما بينها، وحيث أصبحت تتحدى المصالح والقيم وأشكال النفوذ والتمركز الغربية، من هنا فلا بد من المحافظة على التفوق الغربي العسكري ليس في القارة الآسيوية فحسب بل في العالم أجمع،

---

[24] للاستزادة انظر، المسدّي، عبدالسلام. **العولمة والعولمة المضادّة**، القاهرة: مطابع لتس، (كتاب سطور؛ 6)، 1999.

[25] مدير معهد (جون أولوين) للدراسات الإستراتيجية في جامعة هارفرد، وقد أسندت إليه ما بين عامي (1977–1978) مسؤولية قسم التحليل والاستشراق في مجلس الأمن القومي الأمريكي

وما نشاهده من أحداث اليوم على شكل نقاط ساخنة في العراق وأفغانستان من جهة، أم عبر حروب باردة مع إيران والسودان هو انعكاس وترجمة لهذه الرؤية.

ويرى هنتنجتون في أطروحته أن المنبع العميق للصراعات المقبلة في العالم الجديد لن يكون أيديولوجياً أو اقتصادياً في المقام الأول، بل سيكون في الأساس حضارياً، وبما أن هنتنجتون يرى بأن الصراع العالمي سيكون حضارياً في المقام الأول فقد عني في أطروحته بمفهوم الحضارة التي يرى فيها كياناً ثقافياً يتحدد بعناصر موضوعية مثل اللغة والتاريخ والدين والعادات، وبعناصر ذاتية تتركز على التماهي بين البشر.

إن بروز دور الثقافة في النظام العالمي قد بلغ حداً دفع هنتنجتون إلى التأكيد بأن العالم مقبل على عصر صراع الحضارات، حيث لا تستمد الشعوب هويتها الأساسية من انتمائها الأيديولوجي بل تحديدا من إرثها الثقافي، ومن ثَم فإن الصراعات المستقبلية لن تنشب بين الفاشية والاشتراكية والديمقراطية وغيرها من الأيديولوجيات بل بين التجمعات الثقافية الكبرى، وفوكوياما يؤكد بأن هنتنجتون محق بقوله إن الخلافات الثقافية سوف تحتل مركز الصدارة في عالم المستقبل لكن مقولة هنتنجتون تبدو أقل قدرة على الإقناع حين تؤكد أن الفروقات الثقافية سوف تكون بالضرورة مصدر الصراع السياسي في المستقبل، إذ كثيرا ما أدى التنافس بين الحضارات إلى التفاعل الثقافي وقيام تغيرات إيجابية وخلاقة، ويستشهد فوكوياما بالحضارة الغربية واليابان.[26]

وفي ضوء هذه النظرة للحضارة فقد قسم هنتنجتون الحضارات إلى سبع أو ثمان هي: الغربية، واليابانية، والكونفوشية، والإسلامية، والهندوسية، والسلافية، والأرثوذوكسية، والأمريكية اللاتينية، وربما الأفريقية.

يقول فوكوياما عن صراع الحضارات-بغض النظر عما إذا كانت المواجهة بين الثقافات ستؤدي إلى الصراع والصدام أو إلى المزيد من التفاعل والتكيف مع المتغيرات،

---

[26] فوكـــوياما، فرانسيس، **الثقة: الفضائل الاجتماعية ودورها في خلق الرخاء الاقتصادي**، ترجمة: معين ومجاب الإمام، أبو ظبي: مركز الإمارات للدراسات: 1998، ص11.

من الضروري الآن تطوير فهم أعمق للأسباب التي تجعل الثقافات متميزة وفاعلة، لاسيما وأن القضايا المتعلقة بالتنافس الاقتصادي والسياسي في العالم سوف تأخذ باطراد صيغاً وأشكالاً ثقافية،[27] وسيهيمن صدام الحضارات على السياسات الكونية، وستكون خطوط الصراع بين الحضارات هي خطوط معارك المستقبل؛ حيث تشكل الحضارة أسمى تجمع ثقافي لشعب ما، وأوسع مستوى للهوية الثقافية التي يعوزها الأشخاص والتي تميز البشر عن بقية الكائنات؛ إنها تحدد بعناصر موضوعية مشتركة مثل؛ اللغة، والتاريخ، والدين، والتقاليد، والمؤسسات. وبتعيين الهوية الذاتية للأشخاص من المتوقع أن تكتسب الهوية الحضارية الذاتية أهمية متزايدة مستقبلاً، وتتحدد ملامح العالم بدرجة كبيرة بفعل التفاعلات بين سبع أو ثماني حضارات رئيسة، وستحدث أهم الصراعات على طول خطوط الصدع الثقافي التي تفصل بين الحضارات.[28]

وقد صنف هنتنجتون علاقة الإسلام بالغرب على أنها علاقة عدائية، ويستشعر الغرب من الإسلام مخاطر عدة، ومن أهم مصادرها؛ انتشار الأسلحة غير التقليدية في العالم الإسلامي بما في ذلك مخاطر امتلاك الأسلحة النووية من جهة وثورة الشعوب ونهوضها من جهة أخرى، وأن الإسلام قد انتشر بالقوة، وأنه يمثل توجهات حضارة مختلفة، ويقتنع أتباعه بتفوق حضارتهم، وأنه بحاجة إلى تعويض ما، بسبب اضطهاد الغرب واستعماره و نهب خيرات بلادهم، إضافةً إلى خلق الصراعات التي تحدث ما بين المسلمين وغيرهم يصور فيه الطرف المعتدي الطرف الإسلامي، مما يخلق صورة إعلامية في الذهن عن المسلم وفقاً لتوصيفه بأنه إرهابي، أسلوبه الوحيد هو اللجوء إلى استخدام العنف، في حين نحن على علم بأن الإسلام لم يكن يوما داعياً إلى العنف، حيث لم تكن هذه سمة من سماته أو وصفاً من أوصافه، فضلاً عن كونها تزرع فينا كمبدأ يحتم علينا الآخر التعامل معه في المنظور السياسي والثقافي التعليمي، واستمرارية

---

[27] فوكوياما: **الثقة**، مصدر سابق، ص11-12.

[28] هنتجتون. **صداع الحضارات**، مصدر سابق، ص370.

الحضارة الإسلامية؛ ديناً، وثقافة، وعلماً، ومعرفةً، وتقدماً هو دليل واضح على عدم صحة وصف الآخرين؛ لاعتمادها على المنطق، والعقل، والجدال بالتي هي أحسن. وهذه الحضارة دافعت و لم تهاجم إلا بدافع رفع الظلم عن العباد والسعي نحو حرية الأفراد، وكلمات ربعي بن عامر ما زالت أصداؤها في آذاننا إلى اليوم، كما أنها الحضارة الوحيدة التي احتضنت جميع الحضارات والثقافات اليونانية والفارسية والرومانية على اختلاف دينها ولغتها وتاريخها، فالدول هي التي تتحكم بالعلاقات والروابط الحضارية وليس العكس، وأن انفجار أي صراع لا يتحقق إلا من خلال وجود التنظيم السياسي المعروف بالدولة.[29]

وفي أطروحة هنتنجتون نجد أن الصراع حتمي، مع أن الإنسان محكوم عليه بالتجمع والتواصل لأنهما في أصل وجوده، وفي طبائع تكوينه، ثم هما بعد ذلك متكاملان عضوياً ووظيفياً فلا يمكن تصور أحدهما دون الآخر، فلا تجمع اجتماعياً يكون دون تواصل، وليس من تواصلٍ اجتماعيٍ دون تجمع، فالتواصل والتجمع هما السبيل للحضارة.[30]

وما جاءت فكرة هذه الأطروحة إلا من خلال النرجسية الغربية، فهنتنجتون يعبر عن قلقه على مستقبل الغرب وقدرته على البقاء بصفته قوة مهيمنة عالميا في القرن الحادي والعشرين، واصطلاح "الأصولية الإسلامية" دليل على الرعب والقلق والارتباك، فهو يخشى من النهوض الاقتصادي الآسيوي في الصين واليابان وكوريا، فضلاً على أن هذا التوصيف هو لتقريب صورة الإسلام لدى الذهن الغربي وليس توصيفاً ينطلق من الرؤية الإسلامية في النظرة للأصول، كذا مصطلحات؛ الراديكالية

---

[29] البـــياتي، صـــبري. "سيناريو صراع الحضارات؛ الفلسفة السياسة ومستقبل المنطقة"، **المستقبل العربي**، ع221 (1997)، ص50.

[30] صابر، محيي الدين. **التغير وتنمية المجتمع، مركز تنمية المجتمع في العالم العربي**، بيروت: المكتبة العصرية د. ت، ص13-17.

الإسلامية، والإسلاموفوبيا، وغيرها. ومن هنا يرى هنتنجتون أن هذا النهوض يشكل خطراً ليس على مصالح الغرب فحسب بل على قيمه وثقافته كذلك. كما تبين أطروحة هنتنجتون أن الدول التي تحقق نمواً صناعياً سريعاً تبدي مزيداً من الثقة بالنفس، وهي تميل أحياناً إلى الاستعمار والتوسع.

إن هنتنجتون يرى أن الدول ستُحارب من أجل الروابط والولاءات الحضارية، في حين أنها تتدافع بالمناكب من أجل حصصها في السوق وتتعلم كيف تتنافس في اقتصاد عالمي لا يعرف الرحمة، وكيف توفر الوظائف وتتخلص من الفقر.[31]

أما عن الأسباب التي تؤدي إلى الاصطدام بين الحضارات فحصرها هنتنجتون في ستة أسباب أساسية:

1. الأول يكمن في التمايز بين الحضارات والاختلافات المتعلقة بالتاريخ واللغة والثقافة والدين عند الشعوب من مختلف الحضارات؛ حيث إن هذه الشعوب تمتلك تصورات مختلفة حول العلاقات بين الله والإنسان، وبين الفرد والجماعة، وبين المواطن والدولة، وغيرها من التصورات المرتبطة بالحقوق والمسؤوليات. ويذهب هنتنجتون إلى أنّ هذه الاختلافات يمكن أن تكون سبباً قوياً لنشوب الصراع الذي لا يعني بالضرورة العنف والتناحر.

2. أن ضيق المسافات بين بلدان العالم جعل التفاعل يزداد بين منتسبي الحضارات المختلفة، وجعل إدراك الفروق القائمة فيما بينها أكبر. ولتعزيز وجهة نظره يسوق هنتنجتون مجموعة من الأمثلة من مثل: "ردود الفعل السلبية لدى الأمريكان نحو الاستثمارات اليابانية التي تبدو أكثر اتساعاً وسلبيةً من تلك التي تعبّر عنها ردود الفعل الأمريكية تجاه الاستثمارات الكندية أو الأوروبية."[32]

---

[31] السماك، محمد. "الإسلام في صراع الحضارات"، **مجلة الاجتهاد**، ع26-27 (1995)، ص306.

[32] لبـــيب، فخري. **صراع الحضارات أم حوار الثقافات**، أوراق ومداخلات المؤتمر الدولي، القاهرة: مطبوعات التضامن، 1997، ص561.

3. إن عمليات التحديث الاقتصادي والاجتماعي الجارية في كل العالم تعمل على تعميق عملية الفصل بين الشعوب وبين هوياتهم المحليّة، وتضعف دور الدولة وأهميتها الوطنيّة بوصفها مصدراً للهويّة، وقد شهدت كل مناطق العالم بدايات نشاط في هذا المجال، وذلك بصورة حركات دينية كتلك التي تسمّى (الأصوليّات) وهي ليست مقتصرة على الإسلام، بل تتعداه إلى الغرب اليهودي - المسيحي والبوذية أيضاً، وعملية الانبعاث الديني في هذه الديانات تغذي أسس الهوية المشتركة والمشاريع التي تتجاوز الحدود السياسية.

4. الخصائص والفروق الثقافية تبدو أقل حظاً في الوصول إلى وفاق من الخصائص والفروق السياسية.

5. نمو الاقتصاد الإقليمي حيث أدّى النمو الاقتصادي في بعض الأقاليم، والنمو التجاري الذي شهده العالم أخيراً إلى تعزيز الوعي الحضاري لدى هذه الأقاليم، ولا شك أنّ الثقافة المشتركة تؤدي دوراً فاعلاً في تسهيل مجالات العلاقات الاقتصادية بين الدول والشعوب ذات الميول الثقافية والحضارية المتقاربة.

6. يرى هنتنجتون أن الوعي الحضاري يتعزز بالدور المزدوج للغرب، فمن جهة نجد أن الغرب في قمة القوة ولكن في الوقت نفسه نجد أن من نتائج ذلك، ظاهرة عودة بعض الحضارات غير الغربية إلى الأصول؛ فعندما فشلت الأفكار الغربية للاشتراكية في الشرق الأوسط بدأ التوجه للعودة إلى الأصول كعودة الهند إلى الهندوسية وعودة اليابان إلى الآسيوية.

وإزاء هذا الطرح الأيديولوجي العسكري وقف الكثير من الكُتَّاب والسياسيين والمهتمين بأمور الحضارات، ونموها وديمومتها واضمحلالها؛ وقفوا أمام هذا الطرح مناقشين ومعَلّقين كل حسب قناعتهِ ورؤيته الخاصة.

ومن هؤلاء المفكرين كان إدوارد سعيد في مقالته (الصراع بين التعريفات)،[33] حاول من خلالها محاورة هنتنجتون في طرحه حاسراً النّقاب عن عيوب هذه الأطروحة الأكاديميّة والأيديولوجية على حدّ سواء.[34]

هاتان الملاحظتان لا تعنيان التعاطف مع هذه الأطروحة أو تأييد ما جاء فيها ولكن كان من الضروري أن نعلّق على المنهج العلمي الذي اتبعه هؤلاء الباحثون في ردّهم على الأطروحة.

وبالعود إلى مقالة إدوارد سعيد نلحظ أنّ رأي إدوارد سعيد انطلق من زاويتين اثنتين، تكمن الأولى في أن هنتنجتون غير أصيل في أسلوب بحثه، بل ويطلق عليه لقب (الخبير في علم تدبير الأزمات) ويرى أن مراجعهُ في هذا الطرح من الدرجة الثانية التي توازي الطّرح نفسه، أما الثانية فهي نابعة من فكر الأطروحة نفسها ويمكن تلخيصها بالأمور التالية:

الأولى هو دخولها في السياق العام لآراء فرانسيس فوكوياما، وبول كنيدي وغيرهما ممن اشتغلوا بالبحث عن أسباب الصراعات المحتملة في المستقبل، أما الثانية فهي أن فكرة الاصطدام بين الحضارات مبنيّة على طرح برنارد لويس وشارل كروثمر، ومن ثم فإن هذه الأطروحة في مجملها ليست وحيدة دهرها أو فريدة عصرها،

---

[33] محاضرة قدمت في جامعة كيو، طوكيو، 1995.

[34] ومن الخصائص التي امتازت بها الانتقادات والردود التي وجهت إلى أطروحة هنتنجتون:

1. محاولة كثير من الباحثين أن يحققوا الموضوعية في ردودهم على هنتنجتون غير أنهم اتّصفوا بالذاتية في العرض والطرح والتحليل، كما كان واضحاً أنهم قد اطلعوا على الأطروحة اطّلاعاً سريعاً عابراً غير مُعمّق وانطلقوا في ردودهم من بعض النقاط التي مسّت حضاراتهم أو أديانهم وشرعوا في تفنيدها والرّدّ عليها.
2. كما نجد لدى جزء من الذين انتقدوا هنتنجتون، أنهم لم يركزوا إلا على الجزء الأخير من المقال، وهو الجزء الذي يتحول فيه صمويل هنتنجتون من محلل استراتيجي إلى خبير سياسي وعسكري رسمي، فيركزون على هذه النقطة متناسين كَونَ هذه المعلومات التي أتى بها دقيقة وصحيحة وإن كان هنتنجتون قد كيّفها بالصورة التي توائم توجّههُ، انظر، الرزازي، مصطفى، "أطروحة هنتنجتون حول: الاصطدام بين الحضارات والاستشراق الجديد"، مؤتمر صراع الحضارات أم حوار الثقافات، القاهرة 10-12مارس1997م.

وإنما سبق إلى الإشارة إلى بعض أفكارها.

يرى إدوارد سعيد أنّ هنتنجتون قدّم فهماً مختزلاً للإسلام ولغيره من الحضارات الست الأخرى غير الغربية، حين يضعها جميعاً في كفّة ويضع الغرب وحده في كِفّة، الأمر الذي يجعل من تلك القسمة قسمةً ضيزى. تقلل من شأن تلك الحضارات على عراقتها وتاريخها مُعْلِيةً من شأن الغرب وحضارته.

ولعلّ من المفيد أن نذكر في نهاية هذا العرض أنّ هنتنجتون لم يكن دقيقاً في استعماله لمفهوم الحضارة، حيث أعطاها معنىً جغرافياً (الغرب) ومعنى عَقَدياً (الكونفوشية) ومعنىً عِرقياً (السلافية)، ومعنى الدولة (اليابان)، ومعنى الدين (الإسلام)، ومعنى القارَّة (أفريقيا). كما نجده غير قادر على تحديد العلاقة التي تربط العرب بالإسلام، حيث لم يستطع أن يميز بين الحضارة العربية بمعنى الثقافة والتاريخ اللّذين يختصان بثلاث مجموعات دينية (إسلامية، ومسيحية، ويهودية) وبين الحضارة العربية باعتبارها هويّة تحدد من خلال ارتباطها بالحضارة الإسلامية بوصفها إطاراً أعمَّ وأشمل.

أما مع المقارنة مع أطروحة فوكوياما نجد أن هنتنجتون وفوكوياما يتفقان في أن الصراع الأيديولوجي قد اختفى من العالم، إلا أنه اختلف مع فوكوياما أن التاريخ لم ينته بعد. ويبدي خشيته على مستقبل الغرب وهيمنته الكونية؛ فهو يرى أن السياسة الدولية صارت تتحرك بعد انتهاء الحرب الباردة خارج حقبتها الغربية، لتغدو مرتكزة على التفاعل بين الحضارة الغربية والحضارات غير الغربية فتلك الحضارات صارت نداً للغرب بوصفها محركة للتاريخ وصانعة له.

أما نقطة الخلاف الثانية بين فوكوياما وهنتنجتون فتتمثل في أن هنتنجتون لا يعتقد بأن العالم يسير نحو حضارة كونية متناغمة، وإنما يرى بأن صداما وتناحراً حضارياً سيقوم بين الحضارة الغربية من جهة والحضارات الأخرى من جهة أخرى.

خامسا:حوار ثقافات أم صدام حضارات ؟

كثيرة هي الكتب التي اتخذت من هذا العنوان محوراً قامت به ذواتها، وكثيرة هي الندوات والمحاضرات التي عُقدت للإجابة عن هذا التساؤل، فيثور الجدل على امتداد العالم حول قضية الحضارات والثقافات وحول الأهداف المعلنة والخفية وراء تلك الأطروحات التي ناقشناها في الصفحات السابقة.

وهذا الجانب من الدراسات ليس بِكْرَاً وإنما له جذوره الضاربة في عمق التاريخ والدراسات الإنسانية والثقافية والحضارية، فكان من أهم الأفكار التي سيطرت في هذا المضمار الدعوة إلى قيام ثقافة كونية ومجتمع تسوده العدالة الاجتماعية، أو بعبارة أخرى مجتمع المدينة الفاضلة غير أن المشكل ليس في قيام ثقافة مشتركة بقدر ما هو إيجاد عدالة في التوزيع وتنمية الإنسان، مطلق الإنسان بأبعاده الروحية والمادية والفكرية، تهدف إلى الحق والعدالة، وما حوار الأديان سوى بداية على الطرق لإيجاد صورة مشتركة في التعايش لا يمكن أن ترى النور ما لم يتبناها الساسة ويسعى إلى تكريسها المثقفون وتتمثلها سلوكاً حركة الشعوب.

وفكرة الصراع في حدّ ذاتها ليست جديدة أو مستحدثة فقد بدأت من لدن ابني آدم –عليه السلام– واستمرت وتعددت صورها وبواعثها، غير أن مفهوم "صراع الحضارات" تحديداً بدأ يتقولب ويأخذ شكله الأوضح بعد زوال الخصم التاريخي للنظام الرأسمالي في الغرب "الاتحاد السوفييتي" وأنظمة الحكم الدائرة في فلكه في أوروبا الشرقية، حيث انتهى الغرب الليبرالي من صراع الأيدلوجيات وبدأ في منظومة جديدة لصراع الحضارات الهدف من كلا الصراعين السيطرة والهيمنة على مقدرات الشعوب.

وهذا المفهوم تشرَّب معانيَ عنصرية وصليبية ويهودية بعد أحداث الحادي عشر من أيلول 2001م، وانتقل بجدله وتأثيره إلى عالم السياسة، وبدا أن الرئيس بوش وتشيني ورايس ورامسفيلد قد تبنّوا في بعض أقوالهم ومواقفهم وأفعالهم، مفهوم "صراع

الحضارات" الذي نظر إليه كثير من العرب والمسلمين على أنه تبرير أيديولوجي لِشَنّ الولايات المتحدة وحلفائها لحرب عنصرية صليبية -يهودية في عرقها النابض- على الإسلام والمسلمين."[35]

وإذا أردنا أن نتعامل مع الحضارة تعاملاً بيولوجيّاً عضويا[36] ونرسم لها مساراً حياتيّاً نجد أنّ الحضارة الغربية قد فقدت مقومات الحياة والاستمرار وإن كانت تزخر بالمخترعات والتكنولوجيا الحديثة وتعتدّ بقوتها العسكرية، وأساطيلها الحربية إلا أنها فقدت روحها وقيمها، لذا اتخذت من فكرة (صراع الحضارات) ستاراً تخفي خلفه عجزها الروحي وانكسارها القيمي.

وما زال منطلق التفاعل بين الحضارات واحدا، وهو رفض الاختلاف الحضاري وفرض التماثل الحضاري المطلق-أساساً لابد منه لتحقيق حلم القوى حضارياً، وإحساسه بالأمن على وجه هذا الكوكب، وكان امتلاك عنق القوة المطلقة بمقاييس عصرها هو الفيصل في هذا الأمر وهذا هو التفاعل السائد.[37]

وبناءً على هذا لا بد أن يكون الحوار بين الثقافات للقضاء على الهيمنة الأمريكية لتصحيح مسار حركة التحاور والتعارف بين المجتمعات قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (الحجرات:13) بدلاً من سياسة الصراع الذي يأخذ الطابع الثقافي في حين أن جوهره يُمثل صراعاً على المصالح بل الهيمنة عليها، يذكي روحها أمثال هنتنجتون.

إن الحوار الذي لا يستند إلى وضوح مرجعي ومنهجي وغائي، ولا يخضع

---

[35] انظـــر، برهومة، عيسى. **صراع القيم الحضارية بعد الحادي عشر من أيلول 2001**، عمان: مركز دراسات الشرق الأوسط، 2005.

[36] كذا يفضّل قسطنطين زريق التعامل مع الحضارة، راجع كتابهُ، في معركة الحضارة.

[37] فؤاد، ثناء. "إشكاليات التفاعل والحوار الحضاري بين العرب والحضارة الغربي في إطار متغيرات العالم الجديد"، **المستقبل العربي**، ع221-222 (1997)، ص39.

للمعايير العقلانية في استخراج المواقف لا يستطيع أن يكون واقعياً ولا مقنعا؛ كما أنه لا يستطيع أن يبني نسقاً منسجماً من المواقف ولا سياقا مستمرا لها، لذلك فإنه يخفق في دعم موقف حواري حازم وعملي قادر على الحفاظ على هوية الأمة وثوابتها ومقدراتها؛ كما يخفق أيضا في إغناء المساعي لامتلاك مقومات الندية في مجال التفاعل الدولي، وهو فوق كل ذلك غير مفيد بل إنه لا يخلو من خطورة كبيرة متعددة الأبعاد، تتعدى مجال العلاقة المتبادلة، والتفاعلية مع الغير إلى حالة من الإرباك والإحباط والتمزق الداخلي الذاتي، تفضي بدورها إلى حالة من التمترس الانهزامي المدمر.

وتبعاً لقوانين التأثر والتأثير نرى أنّ هذا التفاعل بين الحضارات بوجهيه (الحوار والصراع) لا بدَّ مفضٍ إلى علاقة تأثرية من نوع ما تنشأ بين الحضارات، فإمّا أن يكون هذا التأثر إيجابياً حوارياً لتفتق عنه المدينة الفاضلة والقرية الكونية المحافظة على التنوع الثقافي والتباين الذوقي في العادات والتقاليد، وإمّا أن يكون هذا التأثير سلبياً صراعياً عندئذ فلا مشاحة في ضرورة قيام تلك الحروب التي لا يمكن أن تكون نتيجة للمنافسة الشريفة التي يدّعي الغرب تبنِّيها في عرض حضارته والتسويق لها.

وبعد، يبقى السؤال ماثلاً للعيان: لمن ستكون الغلبة ؟ لحوار الثقافات أم لصراع الحضارات؟ ونحن-العرب والمسلمين- هل سيكون بوسعنا أن نتحرر من إسار الغرب وسطوته، ونلتفت إلى حضارتنا وتراثنا وتاريخنا فندرك أمراً فاتنا إدراكهُ، ولكن لا يفوتنا استدراكهُ وهو أنّ التغيير سنّة الكون والأيام دول، فعلينا بوصفنا أصحاب حضارة وتاريخ أن نبحث عن أنجع السبل لعرض حضارتنا، فتكون السلطانة، السلطانة على الحقيقة، فلا تحتاج إلى مراسم الملك ولا إلى شوكة السلاح، وربّما كان هذا حُلماً بعيد المنال، وأملاً يوقده القرب وينفيه المحال، لذا كان لزاماً أن نعلم أن الحلم لن يصبح حقيقةً حتى نغيّر ونتغيّر.

الخاتمة

وبعد هذا العرض لبعض آراء المنظّرين في مسألة الحضارة والثقافة.

بين الصراع والحوار ترى الدراسة ضرورة التوجه إلى متابعة الجذور الفكرية والثقافية التي تصدّر المصطلحات نحو الذات والآخر، مثل الإرهاب والأصولية والعنف والإسلام الراديكالي والإسلاموفوبيا وقراءة الفئة المستهدفة من هذا الخطاب لتناقش بعد ذلك جدليات تصديرها نحو الخطاب العربي وأثرها في تشكيل العقل المسلم.

لا بد من وضع عملية تداول المصطلحات في العالم العربي تحت المجهر لمعرفة نقاط الإصابة والإخفاق في عملية استخدام المصطلح الترجمي وقراءة أسباب انتقاله من السياسة إلى انفتاح قنوات الاتصال، وخطأ النقل الترجمي بين مستودعات اللفظ المعرفية والاستبطانات الثقافية للذاكرة المعرفية وآليات نقلها بين دلالات الآخر وضرورات الذات، وأبعاد ذلك على الأمة. وهل هذه الرؤى والمصطلحات تعمد إلى تذكية روح الخلاف والصدام أم أنها وصف حقيقي نابع لتيار معين أم هو وصف منطبقٌ على الجميع. وأين تكمن جهود المعاصرين والمنظّرين لفكرة الحوار وآلية إيجاد بواعثه على الأرض ونقاش أسباب تأخره. وهل تقسيم فوكوياما دول العالم إلى طبقتين هو حقيقةً نهاية التاريخ، وما ترنوا إليه الأمم والشعوب، أم هو تعصب أيدلوجي ونظرة فوقية نفعية لغايات بقاء الليبرالية الغربية، وهل صدام الحضارات الذي يرى هنتنجتون من خلاله أن حدود المد الأخضر تقطر دماً -غاضاً الطرف عن الدماء المسالة من أي طرف- هي رؤية مستصفاة للتعايش والحوار.

وهل عقد المقارنات على ما فيه من بيان للقيم الحضارية لدى المسلمين-بين حضارة الإسلام وأيدلوجية الغرب المهيمنة سيجدي نفعاً في إيجاد لغة مشتركة أو دفاعاً وتوضيحاً للتضليل الغربي المشبع بالتعبئة الثقافية والإعلامية -على ما فيه من استنهاض لذاكرة الذات- أم أن العمل الجاد نحو متطلبات الشهود الحضاري وتمثل السنن القرآنية في التدافع الحضاري وآلية النهوض والبناء نحو الشهود وتحقيق غايات الأمة الوسط هو الأجدى والأنفع في ضوء قراءة مفهوم التقوى للسلوك الحضاري من خلال الآيات المطروحة في بداية البحث من سورة الشعراء.